سلطة النوع الأدبي وقراءة النص

إن أكثر الأسباب التي أبقت على الأغراض الشعرية عند العرب، ولم يستطيعوا التحرر منها، كما يقول أكثر الباحثين، هو تحول الغرض الشعري إلى سلطة ترتبط بالنوع الأدبي.

لكن دعونا نفرق بين الغرض والنوع الأدبي، فالغرض هو الغاية من إنشاد القصيدة، أكان مديحا أو فخرا أو هيجاء ..ألخ، بينما النوع الأدبي باعتباره جنسا له أعرافه وتقاليده وأيضا له مؤلفوه المشهورون به، فأبو نواس مثلا عرف بخمرياته، وعمر بن أبي ربيعة بغزلياته، والفرزدق بهجائه وفخره، وهكذا .
فالقصة المشهورة كما يرويها ابن رشيق في العمدة، تقول عندما سمع الفرزدق جميل ينشد: نرى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا.. وأن نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا. فقال له أنا أولى به منك.
والأسباب كما يشير إليها كلام الفرزدق هو أنه من قبيلة مضر، وهي قبيلة من الحسب والنسب، أين منها قبيلة جميل الذي هو من قبيلة بني عذرة.
أيضا لم يعرف عن جميل إنشاده شعرا في الفخر. لذلك، إذا ما انتحل الفرزدق البيت فلن يضيره شيئا ، والناس سوف تنسبه للفرزدق حتى لو سمعوه من جميل.
وهذا ما قصدناه من سلطة النوع الأدبي.
في كتابه «الكتابة والتناسخ، مفهوم المؤلف في الثقافة العربية» يقارب الناقد عبدالفتاح كيليطو هذا المفهوم من باب كبير في الدراسات التراثية النقدية وهو باب السرقات والمنحولات، اعتمادا على كتاب الموضوعات لابن الجوزي «510 – 597»، وهو ما يتيح له الانتقال في المقاربة والتحليل من مجال إلى آخر، من النص الشعري، إلى النص السردي، إلى نص الحديث دون معوقات الضبط المنهجي التي تراعي حدود كل مجال.
بيد أن القراءة النسقية التي يمتاز بها كيليطو، لا تنشغل بالتأصيل للمفاهيم، ولا في ضبط حدودها التاريخية وشروطه الثقافية ، بل يذهب في قراءته مذهب «متعة النص» تحت تأثير رولان بارت ، والتأويل غير المفرط عند أمبرتو إيكو ، فهو منذ بداية اشتغالاته كان يطرح سؤالا رئيسيا: كيف نقرأ نصوص التراث ؟
وكان عنوان كتابه «الأدب والغرابة» دالا على ما سوف يكون اتجاهه النقدي لا حقا، والطريقة التي سوف يتناول بها النصوص التراثية.
ولأجل أن نقرأها قراءة معاصرة دون تعسف، ودون ليّ أعناق النصوص، ودون إثقال كاهلها بكثرة المصطلحات النقدية، علينا العبور بها من حالة الألفة إلى إلى حالة الغرابة، أي أنه يتلمس المناطق

الملتبسة في النصوص ويبدأ منها قراءة النص، حيث ينطلق من اللغة متجها إلى الخطاب، ثم يعود في تحليله من الخطاب إلى اللغة.

المجازات والاستعارات هي المناطق الملتبسة في النصوص التي من خلالها يمكن العبور بالنص إلى الغرابة المقصودة، فمثلا مقاربة النصوص الجيدة من الرديئة في الخطاب النقدي التراثي يتم من خلال تشبيهها بالصيرفة: فهناك نقود أصلية وأخرى مزيفة.

وكل دلالة لفظية تتعلق بالصيرفة تستدعي ما يناظرها من ألفاظ أخرى ضمن حقله الدلالي . وهكذا تمضي القراءة لتعيد تركيب صورة النص ومعناه من جديد.

ولو أخذنا مثالا آخر عن صورة الكتابة التي يستدعي دلالتها من وقوفه على مطلع قصيدة طرفة: لخولة أطلال ببرقة ثهمد.. تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد.

أو قصيدة لبيد: وجلا السيول عن الطلول كأنها.. زبر تجدّ ُ متونها أقلامُ ها.

الكتابة في إحدى دلالتها العميقة هي ارتباطها بالطلول التي لا تندرس ولا تختفي مهما جرى السيل وأخفاها، ومهما طمر معالمها ، فهي مثل الكتب التي تخطها الأقلام وتتجدد، ومثل الوشم المكتوب على اليد الذي لا يمحى آثاره.

يمكن أن نشير إلى أمثلة أخرى في مقارباته مثلا في مفهوم النسخ أو تعدد دلالات الانتحال كما في نصوص الجاحظ. لكن نود أن نخلص إلى نتيجتين: الأولى يعطي كيليطو في قراءته للنصوص مثالا على المتعة من جهة، وتفكيكا للمفاهيم التي تعودنا عليها للقراءة من جهة أخرى. وهذه إحدى أسرار انتشاره عند القراء.